طراز عمارة المكتبة في عصر الإمبراطور تراجان
عبد الله سعد

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقليل، علم الإنسان ما لم يعلم" صدق الله العظيم. إن التطور التاريخي لحياة الإنسان وتفاعل المجتمعات مع بعضها البعض وترابطها، وجد الإنسان نفسه غير قادر على انتقالهم مع الغير من المجتمعات الأخرى، ولذلك بذل قصارى جهده في إيجاد الوسيلة التي يستطيع عن طريقها التواصل والتفاهم مع تلك المجتمعات، ولذلك هداه التفكير إلى اختراع الكتابة التي من خلالها يستطيع أيضاً حفظ إنتاجه الفكري وتراثه الثقافي والعالمي من الضياع والانثمار؛ ولذلك فإن اختراع الكتابة والكتاب جعل هذه المجتمعات في التفكير لتحديد أماكن لحفظ هذه الكتابات، وتمثلت المواد الكتابية في التراثات الدينية، والوثائق الحكومية وهي تلك الوثائق التي تمتلكها الدولة من أجل الضرائب وروابط الموظفين والمراسيم والقرارات.

أصل كلمة مكتبة:

تطور معنى كلمة مكتبة ومدلولها واستعمالها عبر العصور حسب الأمكنة، ولم يكن هناك في أول الأمر تقريب بين مكتبة ودار السجلات والوثائق وانما كان يطلق اللظف على المجموعة كلها دون تميز بينهما. إن أقدم المكتبات وجدت في كل من مصر وبلاد الرافدين في زمن موغل في القدم، وبذلك إن هذين القطرتين يعتبران مهد الحضارة الإنسانية، فقد وجدت فيها أولى الحضارات الإنسانية الراقية، ولأن المكتبة من مستلزمات الحضارة ودليلاً عليها فقد وجدت مع فجر الحضارة في كل من مصر وبلاد الرافدين. وقد سمى المصريين القدماء المكتبة بأسماء مختلفة كلها تتحي بطبعة المكتبة وطبعة المواد المحفوظة فيها، وطبعة الخدمة التي تؤديها مثل بيت الكتابات - محفوظات الأسلاف - بيت
المكتبة المقدسة، والذي ساعد على ازدهار المكتبات في مصر هو توافر نبات البردي بكثرة، وساعد أيضاً على ازدهار المكتبات في مصر هو تطور الكتابة المصرية وتخصص الرهبان ورجال الدين في الكتابة والتعليم. أما بالنسبة للمكتبات في بلاد الرافدين كان يطلق عليها بيت اللوحات الكبيرة وهذا الاسم يدل على طبيعة المادة التي استعملت في بلاد الرافدين وهي اللوحات الطينية:(1) أما اليونان الذين ورثوا حضارة الشرق وطوروها ونموها، فقد أطلقوا كلمة المكتبة أي مكان حفظ للفئات البردية ولا تزال حتى الآن مستخدمة في فرنسا وغيرها من دول العالم اللاتيني للدلالة على المكتبة، كما استعمل الرومان كلمة أخرى للدلالة علي كلمة مكتبة وهي Libri وتعتبر كلمة لاتينية ومعناها الكتاب نفسه.(2)

مكتبة الإمبراطور تراجان بروما
المنشئ : الإمبراطور تراجان(3)
تاريخ الإنشاء : 112-113 م
الموقع : روما (سوق تراجان)

الوصف المعماري للمكتبة :
تميزت مكتبة تراجان براعة التصميم المعماري، وكانت دائمةً أمام أعين الزوار نظراً لموقعها المتميز داخل سوق تراجان علي نهر الكابيتول، ولا تزال بقاياها قائمة حتى الآن، كما يلاحظ من التخطيط أن المكتبة تكونت من حجريتين مربعتين (1 و 2 في المسقط) متماثلتين في التخطيط، وبما في مواجهة بعضهما البعض، إحدى الحجريتين كانت للكتاب اللاتينية، والأخرى للكتاب اليونانية؛(4) يلاحظ في تخطيط حجرة المكتبة أنها تحتوي على ثلاثة أروقة، اثنان منهما يحتويان على سبع أعمدة، ورواق الثالث يحتوي على أربعة أعمدة فقط، ويفصل بين الحجريتين رواق مربع الشكل في منتصفه عمود تراجان، شكل (1)، ويوضح أيضاً التخطيط وجود أربع أعمدة أمام كل حجرة في مواجهة العمود.تخطيط (1)
الحجرة الكبيرة بالمكتبة:

كانت تقع هذه الحجرة في الجزء الجنوب الغربي من المكتبة، وتميزت بالمساحة الواسعة التي بلغت 27,010 م² حوالي 74,000 متر مربع، وكانت تتكون من طابقين وسبعة الحجرة على شك قبو متقطع، وكان يوجد بالجدار الخلفي للمكتبة تجوييف كبير لوضع التمثال الكبير الذي كان يستخدم في تزيين المكتبة وهو ما تميزت به المكتبات الرومانية، وكان يوجد علي كلا جانبي التمثال في الطابق العلوي والسفلية نيشات (فتحات) لخزانات الكتب اثنين في كل مستوى وقد بلغ عرض هذه النيشات 1.35م، وكان يقام أمام هذه الفتحات منصات تساعد الباحث في الوصول إليها، جانب أنها كانت تقام عليها تماثيل التي كانت تستخدم في تزيين المكتبة، شكل (1)، وتميزت مكتبة تراجان بواجهة الأعمدة الرائعة التي كانت تزين مدخل المكتبة وصل عددها أربعة أعمدة وكان يوجد بين الأعمدة بوابات برونزية تغلق بها المكتبة في حالة عدم استخدامها. أما الجانب الشمالي الشرقي من المكتبة فتميز بوجود نافذة علي جدران المكتبة التي ساعدت علي وجود إضاءة قوية داخل المكتبة طوال اليوم.(1) وهذا يدل علي أن فن العمارة الرومانية هو فن ابتكار وإبداع.(2)

تزيين حجرة المكتبة:

قام الأباطرة الرومان بصرف مبالغ كبيرة في زخرفة وتزيين المكتبات الرومانية، وهو ما قام به الإمبراطور تراجان في زخرفة وتزيين مكتبه عندما أمر المهندسين بالإسراف في استخدام الزينة وإقامة التماثيل داخل المكتبة، وقاموا بزخرفة ورصف أرضية الحجرة بقطع كبيرة من الجزائرات الرمادية مستطيلة الشكل من مصر وهذه القطع كانت تفصل بقطع أخرى من الرخام الأصفر من شمال إفريقيا لتعطي شكلا جميلًا.(3) وكان يتم زخرفة الجدران الخرسانية بقشرة من الرخام متعدد الألوان من آسيا الصغرى، وكانت كل نيشة (فتحات داخل الجدران) والتي وصل عددها إلي 36 نيشة، شكل (3) و كانت تزين بإطار من — 296 —
الرخام الأبيض ويعلوها كورنيش من الرخام الأبيض، جانب التماثيل التي كانت تغطي بنوع من الرخام اسمه (pavonazzzo) وهو نوع من الرخام الأبيض، وكانت تستخدم في تزيين تيجان وقواعد الأعمدة التي كانت توضع بين النشات لتزيين المكتبة. أما بالنسبة للتماثيل الذي كان يوجد في التجويف فإنه ربما أن يكون خاص بالرجل المسؤول عن (الكتب، والبناء) داخل المكتبة. 

وستنتج من ذلك أن الرومان قاموا باستخدام تلك المادة في تزيين الجدران والأرضيات والتماثيل التي كان يتم جلبها من جبال آسيا الصغري (تركيا حاليا). ومن هنا فإن مصر لعبت دورا هاما في تصدير الجرانيت إلى روما لاستخدامه في الزينة والبناء أيضا، وجانب ولاية شمال إفريقيا أيضا التي صدرت الرخام الأصفر إلى روما وهذا يدل على أن روما كانت تستغل ثروات الولايات التي كانت تحت سيطرتها للإستفادة منها.

ومن نتاج من خلال دراسة مكتبة تراجان أنها كانت من أهم وأشهر المكتبات العامة بروما وعلى الرغم من أنها كانت من ضمن إحدى العناصر المعمارية لسوق تراجان إلا أنها كان لها مبنى خاص مقسم إلى حجرتين إحداهما للكتب اللاتينية والآخر للكتب اليونانية وهذا يدل على مدى أهمية هذا العنصر المعماري (المكتبة) داخل سوق تراجان، وظلت المكتبة مفتوحة وتسجل زوارها حتى الجزء الأول من القرن الرابع 55م، وهذا يدل على أن المكتبات الرومانية لم تغلق في 380م كما يعتقد بعض العلماء.
ملحق الصور والتخطيطات

تخطيط (1) مكتبة تراجان نقلا عن: (~) (14)

1 و 2: حجرتي المكتبة

1- عمود تراجان الذي بلغ ارتفاعه 7.044 م. (~) (15)
2- الرواق المعمد الذي يحيط بحجرات المكتبة
3- الرواق الخارجي الذي يحيط بعمود تراجان
4- الأعمدة الأربعة أمام كل حجرة من حجرات المكتبة

شكل (1) عمود تراجان والرواق الذي يحيط به نقلا عن: (~) (16)

298
شكل (2) إعادة بناء الجزء الجنوبي الغربي لمكتبة تراجان نقلا عن: (17)

شكل (3) بقايا النيشات والمنصات داخل حجرة المكتبة نقلا عن: (18)
الهوامش:


(2) Worth, R., World Encyclopedia of Library and Information Services, United States, 1993, p.207.

(3) محمد ماهر حمادة، مدخل إلى علم المكتبات، بيروت، 1981، ص 16-17.

(4) يعتبر الإمبراطور تراجان أول إمبراطور يُولي العرش من أصول غير رومانية، فقد كان من سكان الولادات الرومانية، وبالتالي يرى القاضي إسبانيا، إلا أنه كان هو الشخص المناسب للمرحلة، فقد كان رجلاً عسكرياً حازماً قادراً على تحمل المسؤولية، وبالتالي منحه السناتور قلبة أفضل الإباطرة. واهتم بتعميم روما، فأقام فوروم جديد زينه بعمر ضخم معروف باسمه. والذى اكتشفه العلماء في أوائل عام 1982، وعثر العلماء بالمقتنيات على العديد من العملات الرومانية التي استخدمت في تلك الفترة. وأقام حمام أيضاً داخل الفناء. للإلتزادة إنظر: عزت زكي حامد، تأليف عام الفنون، الإسكندرية، 2014، ص 26-27.


(6) هيكل تسقيفي معماري مكون من الداخل ومن الناحية الإنشائية يعمل القبو كوحدة واحدة، تتخلل الأرفال من هيك الوقف إلى الجدران أو الأعمدة ويتخصب من أقدم وسائل التسقيف وله كفاءة ومقاومة عالية لذا تغطي به المساحات الواسعة. إنظر: هاشم عبد الموسوي، العمارة وحلقات تطورها عبر التاريخ القديم، عمان، 2011، ص 229.


(8) Ibid, p.86.

(9) علي عكاشة، اليونان والرومان، القاهرة، 1991، ص 237.


(11) هو نوع من الرخام الأبيض وتم استخراجه بكميات كبيرة حوالي القرن الثاني ق.م. وكان يصدر على نطاق واسع خارج حدود آسيا الصغري بجانب استخدامه الكبير داخل ولاية


(16) J. E. Davies, P., Op-Cit., p.42;

(17) Stierlin, H., the Roman Empire from the Etruscan to the Decline of the Roman Empire, London, 2002, p.133.